

وفي كل ما ذكرنا في هذا الفصل كلامٌ طويل اجتازنا منه بهذا القدر بياناً لما انتهى إليه مبلغ العلم في هذه الأيام وايداناً بما وصل إليه أولئك القوم من الامعان في البحث والمثابرة على استطلاع حقائق الكون وخباياه مما اتسمت به حدود المعارف البشرية الى ما تجاوز مرمى الحواس وجاء من وراء المدارك العقلية . وانما بلغوا ذلك بفضل ما أوتوا من الثبات والصبر على مزاولة المطالب وتبني اولي الامر منهم وارباب الثروة لتأييد دعائم العلم وتعزيز القائمين بامره مما نهض بهم الى اسمى ذرى الفخر وجعلهم في مقدمة الامم في هذا العصر فقلل هذا فليعمل العاملون

— اهل التقادير واصحاب السعي والتدبير —

لحضرة الكاتب الفاضل قسطنطين اقدى الحمصى في حلب

(تابع لما قبل)

وهاً نذا اقص عليك من أنباء بعض المتقدمين والمتأخرين ما يكشف النطاء عن خطاء اهل السعود والحموس وفساد مزاعمهم فرج معي على مصر والصين والهند وبابل ونيوى وآثينا ورومة وغيرها من البلاد والممالك نسأل رسومها الدارسة واطلاها البالية ونستنطقها عن احوال فراعنتها وملوكها الذين نصبوا اعلام مجدهم تاطح الجوزاء وخلفوا اهرامهم آية لمن يأتي بعدهم من الملوك والامراء واختطوا الامصار ووطدوا الاسوار وشقوا الامواج وصنعوا الابراج وشيدوا الهياكل الفخيمة وقاموا بالفتوحات العظيمة وتركوا من بدائع صنائعهم عجائب ومن آيات علومهم غرائب وأمسوا اول عمران رواه تاريخ البشر وشهدت بصدقه الآثار الباقية ولسان حالم ينشد

ان آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار
 أكان ما استسوه وشيدوه وبنوه ومهدوه واحكوه وقيدوه حظاً وسعداً
 وتوفيقاً ام سعيًا وجهداً وتحققاً . ورُفعت اهرام مصر بتوفيق خينوس وبخت
 خورا وسعد منقيرا فراغت ام باقداهم وسعيهم واستبدادهم وبغيهم . أُبْنِيَتْ ممفيس
 المدينة العظيمة مهد العلوم والمعارف والصنائع الاولى بتوفيق مينس ام بسعيه
 واجتهاده . وهل قام سور الصين المنيع وقُتعت طرقاتها وخُرقت جبالها بتوفيق
 تسين شي هو أنك في ملكها العظيم ام بحزمه وسعيه ووفرة اعتائنه وأُحرقت
 كتبها القديمة بأحكام التحس ام بأوامر هذا السلطان المستبد . وتأسست بابل
 العظمى وسورها الرفيع بتوفيق نمرود ورُفعت جَنَاتُهَا المعلقة بسعد سميراميس ام
 بهمها الشَّم وسعيها الوافر . وشيدت ثينوى البديعة بتوفيق آثور وقامت ابراجها
 الالف والخمسمائة بسعد نينوس ام باستعباده الالف من الاسرى وتسخيرهم
 بنيانها وهندمتها وتأنيقها . وعمر البارتيونون — هيكَل مِيزفا — بآثينا على ذلك
 النمط البديع والاسلوب العجيب بتوفيق يريكليس وسعد ايكتينوس وكالبيكات
 وفيدياس ام بسعيهم واجتهادهم ودأبهم . وبنيت الهياكل الفخيمة في رومة
 ونُصبت التماثيل والدُمى البديعة النقش بتوفيق سيرويلوس وفيلويوس وقبصر
 وسيلافالون وغيرهم من قياصرتها ورؤسائها ام بسعيهم وحروبهم وغنائمهم
 بل انظر الى تاريخ نابوليون بوناپرت الاول وما أُوتيه من الفتح في
 حروبه العديدة وارتقائه سدة الملك ومغالبة اهلِه بعد ان دانت لِه السُلطة قروناً
 ولا نسب يؤيد به مدعاه ولا حجة محتج بها فلك البلاد وسن الشرائع ونظم
 الملك وشيد المباني والمصانع والقصور وعبأ الجيوش التي غنت لبأسها الارض
 ونصب اعلام مجده في أكثر الممالك الكبيرة وتوج الملوك الى آخر ما اتاه في

حروبه وما جرى له من الوقائع مما يكاد يُحسب في عداد الحوارق أكان
 ذلك بقضاء الحظ وحكم البخت ام بأصالة الرأي ورجاحة العقل وثوب الذهن
 ومضآء العزم وتوقد الفؤاد وسعة الاطلاع والجدّ والدأب وطول الاشتغال
 والنصب . على أن من يجبل نظره في قصص هؤلاء الاقراء واخبارهم يقف
 من ارمم في موقف الحيرة حتى يكاد لا يصدق ما يقرأه من اعمالهم ولعله
 يحسب ان امراً تُقضى حياته بين امتشاق السيوف وتمبئة الزخوف واقتحام
 الصفوف وتدريب الجنود وترتيب المكاتب وتشيد المدارس وتوزيع الضرائب
 وسن طرق التعليم وجمع اموال المملكة بترتيب وحفظ خزنتها عامرة وخلع الملوك
 من عروشهم ونصب الامراء واجباط مساعي المفسدين واخماد الثورات واشتراء
 الترائع ونشر العدل والامان وتميد سبل العمران ورفع شأن العلوم والفنون
 والصنائع والقائمين بها ومكافأة اهل الاستحقاق وما يتخلل ذلك من عشق وزواج
 وساعات لهو وقرآة الى غير ذلك من تدبير حقير الاشياء وجلبها لهو من راج
 المستحيلات او يمد ذلك من باب المحجزات . وليس الامر في شيء من ذلك ولكن
 هي النفوس الكبيرة تجري في ميادين الاقدام والمهمُ المالية تسابق في حلبة
 السبي لئيل المرام واني لتوفيق وقد حالف بزعمهم غيياً كليلآ ان يأتي ببعض
 ما ذكر عن الفرد من هؤلاء الناس ومن اين للجاهل ان يقوم بحمل جزء من
 هذه الاعمال واقلها يقضي بالسمي المتواصل واجهاد الفكرة واذكاء الخاطر
 وجبس الهمة على المطالب وادمان السهر في اعمال الروية مع استحكام عرى
 الحزم وسبق الخبرة الطويلة والوقوف على حصة كبيرة من المعارف البشرية
 وهذه لا تكون الا في ارباب النفوس الزكية وذوي العناصر الطيبة . وانّ امراً
 تُقضى ايامه بين الكأس والطاس وتقرّ ساعاته بين اغتنام الشهوات ومنادمة

الجلال ليعيد عن المعالي ولو ارتقى ارفع تحت محروم من امانيه ولو عاقد كل
 موهوم من حظ و بخت وان حصل له ذلك فانما يكون استملاؤه اتفاقاً لا
 توفيقاً كان يكون من طريق الارث او غيره من المصادقات النادرة الحدوث .
 وقد شبهوا السعد بغيريت احسر يمد ساعده الطويل فيتناول الرجل ويرفضه
 الى اعلى قامت الشايحة لينظره ويتفرس فيه فان رآه اهلاً للنزلة التي اعدها له
 احله بها والا رمى به من اعلى قامت المائلة الى الحضيض فيسقط مهتماً محطماً
 ولا يخفى ما في هذا التشبيه من الحكمة الرائعة فما العفريت الا الاتفاق
 يعرض للرجل الهام الحازم فيقتنه ويمجد في السعي والعمل ورآه الطالب فيغوز
 باسنى الرغائب وبكسر الرجل الجاهل المتقاعد يحسب الاتفاق عادة قد
 عشقت معانيه وتبها حبه وملك فوادها جماله وباتت اسيرة محاسنه وهو لا
 يقابل حبها الا بالجفاء والدلال والاعراض والملال حتى اذا ما اضاع الفرصة
 وتنبه من غفلة وصحا من سكرته طلبها فرأى انها قد نأت عنه وفرت منه
 واذاقه من صدها الحامض والمر وهجرته واي هجر وعلم انها خريدة مهرها
 الدرر الثوال وعلق بغير بذل المهبج لا ينال وبهذا القدر كفاية لمن كان له قلب
 او التى السمع وهو شهيد

وما أرى اصحاب السعي والعمل الا مصيبين في رأيهم وفيما تقدم من
 براهينهم الساطعة وحججهم الدامغة عبدة لأولي الالباب ولو شئت ان اسرد
 عليك لتعزيز هذا الرأي الرجيح قصص الاغنياء والعظماء واهل الحرف الذين
 جمعوا الاموال الطائلة وبلغوا اعلى مراتب المجد وغلبوا التحس المزعوم والحرمان
 الموهوم بمضآء عزائمهم ووفرة سعيهم وكدم لا تبث من ذلك بما تضيق به
 صفحات الاسفار . وانت اذا تأملت بعين الناقد الخبير وجدت ان البلاد لم تشق

الآ بشقاوة سكانها وجهلهم وكسلهم ولم تسعد الآ بدميهم واقدامهم فما السعد روح
من الارواح ولا التحس شج من الاشباح ولا الحجارة او الخشب من الاجسام
القابلة لهذا الحلول او التي تفعل بأوهام ضعاف العزائم والعقول فانك لو أقيت
قطعة من الحجر الصلد في قصر اسعد الملوك وتركته الف عام بل الف دهر
وقرأت عليها وعزمت وشعوذت واستنجذت الحظ واستخلفت الجد واستدعيت
التوفيق والسعد لما غيرت من حالها شيئاً ولما خرجت عن عداد الحجارة
والصخور المهملات المائلة قسماً كبيراً من هذه الكرة ولكن لو طرحتها بين يدي
حكائك او نحأت او رسام او نقاش او تقار من مهرة هذه الصنائع لصاغها انا
بحار في حسن صنعه ذو الذوق السليم او تتالاً يخرجهُ على ابداع مثال واجل
قويم مما قد تعبد لثله السلف وتعالى بقيته الخلف وتزينت به قصور الملوك
والامراء وتنافس فيه اهل الصنائع والعلماء

ولم نُظَلْ بضرب هذه الامثال — الآ لنصيب من نفس القارئ المعتقد
بهذه الاوهام حظاً يدفع منها الاغترار بهذه الترهات ويبعدها عن مطارح التمسك
بهذه الخرافات ولترسخ في نفسه ملكة السعي والعمل وتنهض به من وهدة الخمول
الذي تولاه متكلاً على همته واقدامه ومثابرته في سبيل المطالب والمآرب
وادواك سني الرغائب والله در القائل

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه وليس عليه ان يساعد الدهر

وقد تعترض علينا فيما نحن فيه بوجود كثيرين من اهل الصنائع الماهرين
والعلماء البارعين وذوي الرأي والاقدام غير بالغين مبلغ سواهم او من هم دونهم
من نعم الدنيا وغطتها وسعة العيش بل ربما يرى بعضهم في ضحك وضيق
والجواب عن ذلك هين فلا تعجلن علينا باللام ولا تحسبن انك قد غلبتنا بمجتك

هذه بل تبحر في كنه الحقيقة وتبصر في استطلاع الامور وابحث عن العلل
 واسبابها وقس الاشياء بنظائرها واشباهها فتبدو لك امور لم تكن في حسابك
 وتبجلي لك اشياء غابت عنك لانك لم تستبطن احوال من بحثت عنه كلها ولا
 دقت في الاستقصاء ولا تعمقت في الفحص والاستقراء بل اخذت الاشياء بظواهرها
 وانما الحقيقة بنت البحث وكم من ظاهر يخالف الباطن وعيب يستره برقع صفيق
 فانك هداانا الله واياك اذا فتحصت عن السر في نجاح الطيب المشعور
 المخرق والاديب المتخلق المتشوق والتاجر الذي حسبه عاجزاً بليداً
 والمزارع الذي عدته موقفاً سعيداً وجدته قائماً بامر واحد هو سعيهم وراء عملهم
 وثباتهم على حرفهم واتكالم على كدهم وجهدهم وما احسن قول الشاعر
 وانما رجل الدنيا وواحدنا من لا يعول في الدنيا على رجل

واضف الى ذلك ظروف الزمان والمكان التي صادفتهم لأول امرم وكانت
 علة سعادتهم لاسباب عديدة . منها ان نجاح الانسان في اول عمل يعمل هو
 أسّ متين لكل ما يزاوله في مدة حياته فهو يمكن من نفسه الاعتقاد بكفاءته
 فيما ينهض له من الاعمال واقداره على صعب المهمات وفوزه بامد الغايات
 قياساً على ما صادفه من النجاح في المرة الاولى ويرتخ في نفوس اهله وذويه
 وابناء بلدته ذلك الاعتقاد وهذا مما يزيد في تجرئه وتشجيمه حتى انه لو اخطأ
 بعد هذا مراراً واصاب مرة لثملوا له عند الفشل الاعذار ونسبوا ذلك الى
 الاقدار وناهيك ما لمعتقد الجمهور من التأثير العظيم في اي امر كان وقد يكون
 على ضلال ولكن نزع ذلك من نفوس معتديهم من اصعب التكاليف . وقد
 يكون اقناع الماقل وردّه عن رأي باطل مهما كان عنيداً ولكن دون اقناع
 الجهال وردّهم عن ذلك خرط القناد في الليلة الظلماء . وغير خاف انهم الفته

الكبرى والقسم الاعظم من المجتمع الانساني في كل قطر واذا قُدِّر اقناعهم فلا
يتيسر ذلك الا على طول الايام والتفنن في اساليب الارشاد والهداية لتتضح لهم
وجوه النوايا حتى يحتاج الناصح الى مجاراتهم في اول الامر على ضلالهم ثم ايامهم
انه قد اهتدى الى فساد ذلك الرأي بانوارهم وعرف خطأه من صوابهم حتى
يتمسك الجهال بالرأي القويم زاعمين انه رأيهم . ولكن قد تمر الايام بل الاعوام
ولا يفوز الهادي بهذا المرام واذا رُزق هذه السعادة بعد طول معاناة النَّصَب
وكثرة المشاق فلا ييلئها حتى يكون صاحبنا المزعوم موفقاً قد بلغ من الفنى ما
تغنى او من الشهرة ما اراد
ستأتي البقية

التويم

يُستعمل التويم الآن علاجاً لكثير من الامراض ولا سيما العصبية منها
وقد لفت الناس كثيراً في امره فاثبت بعضهم له من الخوارق ما لا يقبله
العقل السليم من مثل معرفة الغيب وكشف الاسرار وبيان التحيل وانكر آخرون
فعله وذهب قوم الى ان ما يحدث عنه ليس الا شعوذة يُقصد بها التضييل
والتمويه . وقد تصدى للبحث في حقيقته فريق من العلماء المحققين والاطباء
البارعين فاطالوا النظر في تحقيق مسائله واكثرها من مزاولة التجارب فيه على
طرق مختلفة تحروا بها اثبات الصحيح ونفي الفاسد من مزاعم متحلي هذه الصناعة
حتى تبين وجه الصواب فلم اكثرهم بصحة ما يحدّثه من الاثر النافع في صناعة
الشفاء وهم الآن يعتمدون عليه في علاج الامراض العصبية مما لم تنجح فيه حيل
الاطباء

ولم يقتصر البحث عن التويم على بيان منافع الشفاة ولكنه كان